بين يدي السيرة النبوية

"النور الخالد محمد ﷺ... مفخرة الإنسانية"، ذلك الكتاب الذي أبدعه العالم الجليل محمد فتح الله كولن. لقد أبدعه بقلب المحب وعقل المحقق، فجاء على هذا النحو الجليل والجميل، الذي يقود القلوب والعقول إلى عشق سيد الخلق، والاقتداء بصاحب الخُلق العظيم ﷺ.

بين يدي السيرة النبوية

كلما رأيت كتابًا[1] جديدًا في سيرة المصطفى خاتم الأنبياء والمرسلين، صاحب الخلق العظيم، محمد بن عبد الله ﷺ، تواردت على خواطري العديد من الأفكار... منها على سبيل المثال:

إن سير العظماء وتواريخ القادة وأخبار المصلحين والعلماء والمفكرين والفلاسفة عبر كل الحضارات وعلى مر التاريخ، تُكتب -هذه السير- وتختم ولا يعود فيها مجال للمزيد أو الجديد.

لكن سيرة رسول الله ﷺ، قد كانت ولا تزال وستظل ميدانًا مفتوحًا للتأليف والإبداع الذي يكتشف في هذه السيرة العطرة المزيد والجديد... حتى لكأنها نبع متجدد وكتاب مفتوح يكتشف فيه العقل المبدع ما لم يكتشفه الأسلاف... وذلك بقدر ما يتحلى هذا العقل بالوعي والإخلاص والحب والولاء.

حدث ذلك على مرّ تاريخ الإسلام، في الإطار الإسلامي، ومن قِبل نفر من غير المسلمين. فرغم الكم الهائل من الكتب والمجلدات التي كتبت في هذه السيرة العطرة، كانت ولا تزال معطاءة للمزيد من الجديد.

---

[1] لقد كتب هذا المقال بمناسبة صدور الطبعة الثانية لكتاب "النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية" للأستاذ فتح الله كولن.

إذن، فنحن أمام فرادة و تميز وامتياز، اختصت بها سيرة الرسول ﷺ، وهي فرادة تحتاج إلى تفسير وتعليل.

كذلك، وجدنا ونجد في كل تواريخ العظماء والقادة والعباقرة والمصلحين تناقصَ أتباعهم ومريديهم وعشاقهم ومحبيهم مع توالي السنين والقرون، بمن في ذلك الرواد الذين تكونت من حول دعواتهم ومبادئهم وسيرهم ديانات وضعية. فأتباع "ماني" (٢١٥-٢٧٦م) وأتباع "زرادشت" (٥٨٣ ق.م) يقتربون الآن من الزوال. وأتباع "بوذا" (٥٦٦-٤٨٦ ق.م) هم الآن أقل بكثير جدًّا مما كانوا عليه في سالف الأزمان.

بل إن هذا القانون قد سرى حتى على أتباع الرسل الذين سبقوا رسولنا ﷺ، على درب النبوات والرسالات. فأتباع موسى عليه السلام -من اليهود- لا يتجاوزون خمسة عشر مليونًا، أبعدت العلمانية أغلبهم عن الروح الديني الذي جاء به كليم الله، ولم يبق لهم من اليهودية إلا العصبية والعنصرية التي لا علاقة لها بما جاء به موسى عليه السلام.

وكذلك الحال مع أتباع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام. فالشرق الذي ظل قلب العالم المسيحي لعدة قرون، قد غدا منذ قرون طويلة قلب العالم الإسلامي. وأوروبا التي غدت لقرون عديدة قلب العالم المسيحي، لا يؤمن فيها اليوم بوجود إله سوى أربعة عشر بالمئة من السكان، ولا يذهب إلى كنائسها التي خانت كثير منها نصرانيتها سوى عشر بالمئة من الأوروبيين.

أما الإسلام؛ وأحباب وأتباع رسول الله ﷺ، الذين يحبونه حتى يحبهم الله ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(آل عمران:٣١)، والذين يطيعون الرسول كي تتحقق طاعتهم لله

ﷻ: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾(النساء:٨٠)، فإنهم الاستثناء الوحيد -عبر التاريخ والديانات- من هذه الظاهرة التي مثلت قانونًا لا يتخلف إلا في عالم نبينا ورسولنا عليه الصلاة والسلام. فأتباعه وعشاقه ومريدوه الذين يتخذونه الأسوة الحسنة والمثال المتسامي هم وحدهم الذين يتزايدون ويتكاثرون، وتباهي بهم الدنيا، كما سيباهي بهم رسولنا يوم القيامة، إن شاء الله!.. وتلك هي الأخرى، ظاهرة فريدة، تحتاج إلى تفسير وتعليل.

وعبر تاريخ دعوات الإصلاح، ومشاريع النهوض، وفلسفات التقدم، والمبادئ التي تركت بصماتها في مسيرة التحرير والتغيير للأمم والشعوب، كان وهج هذه الدعوات والفلسفات والمبادئ يقلّ شيئًا فشيئًا، كلما تغير الواقع المعيش، وتبدلت العادات والتقاليد والأعراف... بل لقد أصاب هذا التراجع حتى الكتب السماوية التي جاءت بها النبوات السابقة، عندما استُحفظ عليها الناس فلم يحفظوها، فنسوا حظًّا مما ذكروا به، وبدلوا الكلم من بعد مواضعه، وكتبوا بأيديهم ما كذبوا، فقالوا هو من عند الله!..

وهنا -أيضًا- نجد أن دعوة رسولنا ﷺ، بدءً من الوحي المعصوم والمحفوظ حفظًا إلهيًّا إلى السنة المطهرة التي مثلت البيان النبوى للبلاغ القرآني... نجد هذه الدعوة استثناء فريدًا من هذا القانون الذي سرى على سائر الدعوات والفلسفات والمبادئ والنظريات والكتب. فهذه الدعوة -في وحيها الإلهي- كتاب مفتوح لا تنقضي عجائبه، فيه نبأ الأولين وخبر الآخرين. والكليات والإشارات والجوامع التي تتكشف وتتجلى -بمرور الأزمان وارتقاء العقول وتقدم العلوم- آياتٍ ومعارفَ وسننًا كونية واجتماعية مبثوثةً فى الأنفس والآفاق، حتى لكأنها المعجزات المتواليات

تترى من هذا الإعجاز الإلهي والنبوي الذي جاء به المصطفى عليه الصلاة والسلام.. تُديم التحدي للجاحدين، وتضاعف الطمأنينة لقلوب المؤمنين. وهذا التوهج المتزايد والمتعاظم -هو الآخر- ظاهرة فريدة تحتاج إلى تفسير وتعليل.

فما هو تفسير هذه الظاهرة الفريدة التي تميزت وامتازت بها سيرة الرسول الكريم ﷺ، ودعوته على سائر السير والدعوات؟

إن الإجابة المفصَّلة على هذا السؤال تحتاج -ولا شك- إلى مجال أوسع بكثير من هذا الحيز الحاكم الذي نحن فيه. لكننا نستطيع -في هذا المقام- أن نوجز إشارات إلى عدد من المعالم التي تمثل رؤوس أقلام للإجابة على هذا السؤال، وذلك من مثل:

إن سير العظماء والقادة والمصلحين تكتب وتختم وتكتمل فصولها وتتم وقائعها، لأنها سير بشر، يعيشون في نطاق عالم الشهادة لا يتعدونه، ذلك العالم الذي تدرك العقولُ الإنسانية كنه حقائقه، ومآلات دعوات الإصلاح البشرية والفلسفات العقلية التي أبدعها وطبقها هؤلاء القادة والعظماء؛ بينما سيرة رسولنا ﷺ -وهو بشر حرص القرآن الكريم على التأكيد على بشريته- هي سيرة "بشر-يوحى إليه".

ففي سيرته ودعوته وسنته وشمائله ارتبطت البشرية بالنبوة، والعادة بالإعجاز الخارق للعادة، والاجتهاد بالعصمة، والأرض بالسماء، والنسبي بالمطلق، والعلم الجزئي بالعلم المحيط، وعالم الشهادة بعالم الغيب، والزمني بالخلود، فغدتْ سيرةُ البشرِ الرسول -هنا- حاملة من المطلق الخالد ما يجعلها دائمة العطاء، ومستعصية على الختم والانتهاء وطي الصفحات وجفاف الأقلام.

كذلك، تميزت سيرة رسولنا الكريم ﷺ، حتى على سير الخالين من الرسل والأنبياء، عليهم جميعًا صلوات الله وتسليماته، بأنها سيرة النبوة الخاتمة والرسالة الخالدة، فاستمر عطاؤها، ومن ثم ظل كتابها مفتوحًا دائمًا وأبدًا لاكتشاف السنن والقوانين والدروس والعبر والعظات؛ بينما كانت رسالات الخالين من الرسل، وكذلك معجزاتهم، خاصة بقوم بعينهم، وزمن بعينه، وحجة على من شهد تلك المعجزات المادية التي أدهشت العقول.

على حين كانت معجزة القرآن الكريم مستنفرة للعقل دائمًا وأبدًا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها... وكانت السنة النبوية المطهرة بيانًا نبويًّا لهذا الإعجاز القرآني الخالد، الأمر الذي جعلها -مع السيرة النبوية- كتابًا مفتوحًا على ألوان لا تحصر من الإعجاز العلمي والقيمي والإصلاحي، الصانع للإنسان السوي وللمجتمع السوي، عبر الزمان والمكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. إنها سيرة الرسول الخاتم، صاحب الشريعة الخالدة... إمام أولي العزم من الرسل... والمتفرد بالرسالة العالمية... وبإقامة الدولة وصنع الحضارة، مع تبليغ الدعوة الدينية.

فدينه قد تفرد بتأسيس الدولة، وتوحيد الأمة، وتنظيم الاجتماع، والتحريض على بناء الحضارة. ودولته قد غدت الحارس للدين، الذي تسوس به اجتماعها المدني... كما ضمن خلودُ هذا الدين لحضارته خلودًا تفردت به عن سائر الحضارات.

ولهذا الكمال والاكتمال الجامع -في الدعوة الإسلامية- بين الدين والدنيا والأرض والسماء والاجتهاد والعصمة، والدين والدولة، والدنيا والآخرة، والفرد والأمة، والتكاليف الفردية والاجتماعية، والعلوم الشرعية

والمدنية، والعقل والنقل والتجربة والوجدان، والتصديق لما سبق من الكتب والرسالات مع الهيمنة والتصحيح والإكمال لهذا الذي سبق من الكتب والرسالات... لهذا الكمال والاكتمال في الدعوة الإسلامية، فلقد تميزت سيرة رسول هذه الدعوة، عليه الصلاة والسلام، التي هي سيرة "البشر-الرسول"، بأنها سيرة الإنسان الكامل، بكل ما في هذا الكمال والاكتمال الإنساني من أبعاد تجعل ختم الكتابة لسيرته هذه أمرًا عصيًّا على التحقيق...

فهو الذي وجده ربه فقيرًا فأغناه... ومع ذلك كان انحيازه إلى بساطة عيش الفقراء وحياة المساكين طوعًا وشوقًا واختيارًا.

وهو الذي تحمّل-صابرًا ومصابرًا- كل إيذاءات الشرك والنفاق، ومع ذلك بلغت به الرحمة والرأفة إلى الحد الذى جعله رؤوفًا رحيمًا بالذين آذوه وآذوا صحابته، فأطلق لهم عنان الحرية فى لحظات انتصاره الأكبر... ودعا لهم بالهداية في لحظات الذروة من الإيذاء.. رجاء أن يخرج الله من أصلاب الغلظة من يرق قلبه لنعمة الإيمان بالإسلام، فيهتدي بسراجه المنير.

ومع أنه قد حمل هموم إقامة الدين، وتأسيس الدولة، وصلاح الدنيا، وعبء تغيير العالم... فلقد تكاملت فيه كل صفات الإنسان الكامل؛ فكان بشوشًا يمزح ولا يقول إلا حقًّا، ويسامر أصحابه، ويداعب زواره، ويخدم أهله، ويقدم اليسر على العسر، يحب أن تؤتى رخص الدين كما يحب أن تؤتى عزائمه، ويحرص على طلب الجمال فى محيطه، ليستمتع به ويعلم الناس الاستمتاع بنعمته، حتى ليجعل من صلاة الاستسقاء مناسبة يدعو الله فيها: "اللهم أنزل علينا في أرضنا زينتها"، ومن دعاء السفر مناسبة يستعيذ فيها بالله من كآبة المنظر، ومن مسجد النبوة مسرحًا للفنون ومتعة

الترفيه الحلال... ومن الأعياد والأعراس مناسبات للزينة والفرحة واللهو الحلال الذي يجدد الملكات والطاقات عند الإنسان.

حتى ليروى أنه "لم يكن ريح أطيب من ريحه، وكأن عرقه اللؤلؤة!.."

وهو -مع ذلك- الذى يقف بين يدي مولاه -في الصلاة- حتى تتورم قدماه... ويجعل من الرفق بالإنسان والحيوان والطبيعة مناسك يتقرب بها الإنسان إلى الله.

وهو الذي يغضب لما يغضب الله... وإذا اضطر إلى الجهاد القتالي -دفاعًا عن الدين والوطن- كان، إذا حمي الوطيس واحمرت الحدق، أقرب المقاتلين إلى الأعداء، حتى ليحتمي به الفرسان فى ساحة القتال.

فهو الإنسان الكامل، والرسول الخاتم، والبشر الذي يوحى إليه، والمجتهد المعصوم الذي اتصلت -في سيرته- الأرض بالسماء، وامتزج فيها النسبي بالإطلاق والخلود... فهو ﷺ، روح في جسد، ككل البشر، يأكل الطعام ويمشى في الأسواق... لكن روحه بعبارة الإمام محمد عبده (١٢٦٥-١٣٢٣هـ/١٨٤٩-١٩٠٥م) "ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليه سطوة روحانية. وهو بمنزلة العقل من الإنسان. إنه إمام أولى العزم من الرسل الذين ميزهم الله بالفطرة السليمة، وبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه، والأمانة على مكنون سره، مما لو انكشف لغيرهم لفاضت له نفسه، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته، فيشرفون على الغيب بإذنه، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالمَين، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها".

نعم، لهذا التميز والامتياز الذي جعل من الرسول ﷺ "نهاية عالم الشهادة وبداية عالم الغيب... وعقل الإنسانية والبشرية"، ولتميز رسالته بالإتمام والإكمال للدين والأخلاق، وبالعالمية، وبالخلود، وبالدولة والاجتماع والحضارة مع الدين...

لكل ذلك تميزت سيرته ﷺ، عن كل سير القادة والمصلحين والعظماء والانبياء والمرسلين... بل وشاء الله أن تكون سيرته وتاريخ دعوته هو التاريخ الوحيد المعروف والموثق دون سير الأنبياء وتواريخ الرسالات التي لم يبق من سيرها إلا ما جاء في القرآن الكريم. فكانت سيرته ﷺ، الخبر الصادق حتى في سير الخالين من الرسل، عليهم جميعًا أزكى الصلوات والتسليمات.

بهذه الأفكار والخواطر أستقبل -دائمًا وأبدًا- كل إبداع جديد في سيرة المصطفى ﷺ. وبها أقدم بهذه الطبعة الجديدة لهذا العمل الفريد في سيرة المصطفى ﷺ، النور الخالد... ومفخرة الإنسانية، ذلك الكتاب الذي أبدعه العالم الجليل محمد فتح الله كولن. لقد أبدعه بقلب المحب وعقل المحقق، فجاء على هذا النحو الجليل والجميل، الذي يقود القلوب والعقول إلى عشق سيد الخلق، والاقتداء بصاحب الخلق العظيم.

أمدَّ الله عالمنا الجليل بمدد من عنده، ونفع به وبعلمه، وجعل هذا العمل الجليل في ميزان حسناته يوم الدين... إنه ﷻ أفضل مسؤول وأكرم مجيب.

مجلة حراء

تحتفل بعامها الرابع في القاهرة

- مجلة بلغة القرآن
- رسالة الأستاذ فتح الله كولن

"إن شعوب العالم في حاجة إلينا نحن معاشر المسلمين. إذا نحن مثلنا ديننا وحضارتنا حق التمثيل. وإنه لا عذر لنا اليوم في عدم التواصل مع الآخر وعرض نموذجنا الإسلامي الراقي في أسواق العالم الثقافية. بيد أن أولى الخطوات أن نتواصل نحن فيما بيننا، وهذا هو دور "حراء" في تجديد الأخوة بين العرب والأتراك وفي إحياء لغة القرآن الكريم وروحه وثقافته".

مجلة حراء
تحتفل بعامها الرابع في القاهرة

عندما يسمع المرء كلمة "حراء "يقفز إلى ذهنه وعقله وقلبه ذلك الغار المكي الذي نزل فيه الروح الأمين على قلب الصادق الأمين بأولى آيات القرآن الكريم فكانت همزة الوصل مع تاريخ النبوات والرسالات بعد فترة من الرسل والرسالات.

مجلة بلغة القرآن

ومنذ ثلاث سنوات[1] حملت ذاتَ الاسم "حراء" أولُ مجلة تركية ناطقة بالعربية "لغة القران الكريم" لتصل تركيا الجديدة بتاريخها الإسلامي الجديد بعد قطيعة عاشها الأتراك إزاء هويتهم وتاريخهم وجوارهم وإزاء العربية وحرفها الذي هو من فنون الجمال.

وفي القاهرة "قلب العروبة والإسلام" أقيم في ٢٠٠٨/١١/١٢ احتفال ثقافي لمجلة حراء التي ازدانت صفحاتها منذ صدورها بأقلام العلماء والمفكرين الذين مثلو أغلب بقاع العالم الإسلامي حتى لقد أحيت بذلك معنى الهوية الإسلامية الجامعة للأمة ولواء الإسلام.

---

[1] صدر أول عدد لمجلة حراء سنة ٢٠٠٥

وإلى حضور هذا الاحتفال وجه الراعي لإصدار هذه المجلة الداعية التركي العلامة الأستاذ "فتح الله كولن" رسالة بليغة وجامعة جاءت قطعة ذهبية من أدب الرسائل وعيون المراسلات.

لقد تحدث فيها بتواضع العلماء العظام عن مصر "بلد الحضارة الشامخة والتاريخ المجيد"، بلد الكيل الكريم والخير العميم وموطن خزائن العلم والأدب وكنانة الإسلام وحصنه المنيع، صاحبة الدور القيادي الذي أداه رجالها قديما وحديثا في نصرة الإسلام ونشره في كثير من بقاع الأرض، وفي نهضة التجديد في مجال الإصلاح الديني، والريادة في إحياء اللغة العربية والشعر والأدب، والسبق في النجاح الساحر بمجالات النشر والصحافة والإعلام.

هكذا تحدث العلامة "فتح الله كولن" عن مصر في رسالته إلى المحتفلين بمجلة "حراء". ثم تحدث إلى علماء مصر عن هذه المجلة فقال: "لقد جئناكم بمجلتنا الفتية "حراء" نضعها بين أيديكم، عساها تلقى الاحتضان الحنون بصدركم والمدد الكريم من أقلامكم، فهي وليدة صغيرة رجعناها إلى أمها كي تقر عينها ولا تحزن، فعسى الله أن يلقي عليها محبة منه فيكفلها منكم كتاب".

ثم تحدث الداعية الكبير عن ضرورة التواصل الفكري بين الأتراك والمصريين فقال: "إننا ونحن بين أيديكم نصل رحمنا، ونجدد عهدنا، ونحيي أخوتنا، فدماؤنا واحدة وحديثنا واحد وتاريخنا واحد، ومن ثم فأشواقنا واحدة، وليس ثمة رابط أوثق في تجديد الأخوة التي بيننا من رابط الكلمة المؤمنة التي تفتح القلوب، وتحيي، النفوس وتجدد صلتها بالله".

ثم تحدث -حفظه الله- عن فريضة التواصل العلمي بين أبناء الأمة

لتبادل الخبرات وتقريب الرؤى فيما يتعلق بتجديد الدين وعلاج جراح الأمة ومحاربة اليأس وتوجيه الجيل إلى الاسترواح من روح الله اعتمادًا على المنهج القرآني القائم على الوسطية والاعتدال.

ثم ختم رسالته بالإشارة إلى دور العلماء المسلمين إزاء الإنسانية: "فشعوب العالم في حاجة إلينا إذا نحن مثلنا ديننا وحضارتنا حق التمثيل. وإنه لا عذر لنا اليوم في عدم التواصل مع الآخر وعرض نموذجنا الإسلامي في أسواق العالم الثقافية. بيد أن أولى الخطوات أن نتواصل نحن فيما بيننا، وهذا هو دور "حراء" في تجديد الأخوة بين العرب والأتراك وفي إحياء لغة القرآن الكريم وروحه وثقافته".

هكذا كان الاحتفال بمجلة "حراء" مناسبة طيبة لسماع هذه الرسالة من العلامة "فتح الله كولن" التي جاءت نموذجًا من عيون الرسائل التي تستمد جمالها من بلاغة القرآن الكريم.

وفيما يلي ننشر نص خطاب الأستاذ فتح الله كولن إلى الحاضرين في ملتقى حراء بالقاهرة.

رسالة الأستاذ فتح الله كولن

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه تعالى نستهدي ونستعين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتمِ الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد؛

حَضَرَاتِ السادة والسيدات، رِجَالَ مِصْرَ الكرام، ونساءَها الصالحات...

أيها العلماءُ والمفكرون، والأدباءُ والمثقفون، ورجالَ الصحافةِ والإعلام...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إنه ليسعدني اليومَ -سادتي- أن يكون هذا الوفد التركي من إخوتي بين أيدي نخبة من علماءِ مِصرَ ومفكريها الكبار. ولولا ظروفٌ قاهرةٌ لكنتُ اليومَ معهم، فما أَسْعَدَ أن يَحُلَّ المرءُ ببلد الحضارة الشامخة والتاريخ المجيد.

أيها السادة المحترمون! لقد قَدِمْنَا إليكم لعرض مجلتِنا "حِرَاء" على أنظار حضراتكم مستنصحين ومسترشدين. فهذا مجالٌ لكم فيه فضل السبق والريادة والتأسيس، ونحن لكم فيه تَبَعٌ. قدمنا إليكم في عهد طالت به السنوات الشِّدَاد، فلا زرعٌ ولا ضَرْع، وأكلت بَقَرَاتُهُ العِجَافُ سِمَانَهَا، حتى حللنا بمصر بلد الكيل الكريم، والخير العميم، وموطن خزائن العلم والأدب. ورغم أننا جئنا ببضاعةٍ مُزْجَاةٍ من الثقافة والفكر فإننا نرجو أن نَمِيرَ أهلَنا، ونحفظَ مجلتَنا، ونزدادَ كَيْلَ بعير.

لقد قدمنا إلى مِصْرَ كِنَانَةِ الإسلام وحِصْنِهِ المنيع، ذاكرين الدور القيادي الذي أداه رجالُها -قديمًا وحديثًا- في نصرة الإسلام، ونشره في كثير من بقاع الأرض، وكذا ما حققوه -بعد ذلك- من نهضة تجديدية في مجال الإصلاح الديني، وريادةٍ في إحياء اللغة العربية والشعر والأدب. وما كان لهم من سبق باهر، ونجاح ساحر، في مجال النشر والصحافة والإعلام. إننا نشعر الآن ونحن بين أيديكم -أحبتَنا الكرام- أننا نَصِلُ رَحِمَنَا، ونجدد عهدَنا، ونُحْيِي أُخُوَّتَنَا. فليس يخفَى أن دماءَنا واحدة، وأن دينَنا واحد، وتاريخَنا واحد، فلا غَرْوَ أن تكون أشواقُنا واحدة. وليس ثَمَّةَ رابطٌ أَوْثَقُ في تجديد الأخوة، وصِلَةِ الرحم الروحية التي بيننا من رابط الكلمة، الكلمة المؤمنة المتوضئة التي تفتح مغاليق القلوب، وتُحْيِي

مَوَاتَ النفوس، وتجدد صلتها بالله.

أجل؛ جئناكم بمجلتنا الفَتِيَّة "حراء"، نضعها اليومَ بين أيديكم عساها تَلْقَى الاحتضان الحنون بصدركم، والمدَدَ الكريم من أقلامكم. فإنما هي وليدة صغيرة، رَجَعْنَاهَا إلى أمها كي تَقَرَّ عينُها ولا تحزن. فعسى اللهُ أن يُلْقِيَ عليها محبةً منه؛ فَيَكْفُلُهَا منكم كُتَّابٌ، ومفكرون، وعلماء، وأدباء، ونكون نحن على أبوابها وعَتَبَاتِهَا في خدمتكم. وأي خدمة أفضل من خدمة أهل العلم الذين حَمَّلَهُمُ اللهُ أمانةَ رسالتِه، ورايةَ دعوتِه، وتجديدَ دينِه.

هذا، وإننا نحسب -سادتي- أن الإبَّانَ قد حان، للتفكير الجدي في تجديد قنوات التواصل العلمي والثقافي، بين أبناء الأمة الواحدة علمائِها ومفكريها لتبادل وجهات النظر، وتعاطي ثمرات التجارب، وتقريب الرؤى والتصورات، فيما يتعلق بأمر تجديد الدين، وعلاجِ جراحِ الأمة الثَّخِينَةِ، ومحاربة اليأس والقُنُوطِ، وتوجيه الجيل إلى ظلال الاِسْتِرْوَاحِ من رَوْحِ الله، وتجديد الثقة به تعالى واليقين. ونحسب أن نشر الكلمة الطيبة، المحملة بالعلم النافع، والأخلاق الرفيعة، والسلوك الروحي الصافي، وإيصال مواردها العذبة إلى جميع الناس، اعتمادا على المنهاج القرآني السليم، القائم على الوسطية والاعتدال، ونشر المحبة والسلام لكفيل بالنهوض بهذا الهدف النبيل والمقصد الجليل.

أيها السادة الكرام! إن شعوب العالم لفي حاجة إلينا نحن معشرَ المسلمين، إذا نحن مَثَّلْنَا دينَنا وحضارتَنا حَقَّ التمثيل. وإنه لا عذر لنا اليوم في عدم التواصل الإيجابي مع الآخر، وعرض نموذجنا الإسلامي الراقي، في أسواق العالم الثقافية. بَيْدَ أن أولى الخطوات أن نتواصل فيما

بيننا نحن أبناء الأمة الواحدة أولا. وعسى أن تكون مجلة "حراء" قناةَ اتصالٍ علمي، تجدد الأُخُوَّةَ بين العرب والأتراك، وتُسْهِمُ في إحياء لغة القرآن وروحه وثقافته.

سادتَنا الكرام! هذه مجلتنا ممدودة إليكم، تنشر صفحاتِها تحت مِدَادِ أقلامِكم، عساها ترتوي من نِيلِ أفكاركم، وفيضِ أرواحكم. فبكم ننافس إذا تنافست الصحف، وبكم نفخر إذا تفاخرت المجلات.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

روح الحضارة الإسلامية

- بناء الحضارة والثقافة
- التوازن والانسجام
- ما أسباب التخلف؟
- حجم المشكلة
- ما هو الحل؟

إن الدعوة الدينية في الإسلام لم تقف عند حدود تدين الإنسان، وتحقيق عبوديته لله بالشعائر المعبِّرة عن الإيمان القلبي، والمفصحة عن علاقته بالسماء، وإنما امتدت هذه الدعوة لتحقق ائتلاف هذا الإنسان بالأمة والمجتمع والكون.

روح الحضارة الإسلامية

لقد كانت الصناعة الثقيلة التي بدأت الدعوة الإسلامية فأقامتها، منذ المرحلة المكية، هي صناعة الصياغة الإسلامية للإنسان الذي تدين بدين الإسلام.

وكانت "دار الأرقم بن أبي الأرقم" في مرحلة سِرّية الدعوة الإسلامية، أي منذ فجر تلك الدعوة هي أولى المؤسسات التربوية التي أقامها رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام.

وقبل فتح المسلمين للمدائن والأمصار والأقطار، وقبل إقامة الدولة، وتغيير الواقع وتطبيق القانون وبلورة العلاقات الدولية كان الفتح الإسلامي للقلوب والعقول بهدي القرآن الكريم. ذلك الذي أصبح خُلق سلوك وممارسات، وسجية للحياة التي يحياها المسلمون، بل إن أولى المدن التي فتحها المسلمون قبل الهجرة النبوية وقبل الدولة الإسلامية -وهي المدينة المنورة- قد فتحها المسلمون بالقرآن الكريم.

وبعد إنجاز الصياغة الإسلامية -بالتربية- للإنسان، جاءت كل الإنجازات والفتوحات، في ميادين الحضارة وعلومها والثقافة وآدابها وفنونها، فكانت تجسيدًا لهذا الذي سبق وتم إنجازه في نفس الإنسان.. جاءت جميعها مصاغة بمعايير الإسلام، التي سبق وصاغت نفوس وعقول

وقلوب الذين اهتدوا بهدْي الإسلام.

إن الدعوة الدينية في الإسلام لم تقف عند حدود تدين الإنسان، وتحقيق عبوديته لله بالشعائر المعبِّرة عن الإيمان القلبي، والمفصحة عن علاقته بالسماء.. وإنما امتدت هذه الدعوة لتحقق ائتلاف هذا الإنسان بالأمة والمجتمع والكون، فتوحدت في نفس هذا الإنسان عوالم الغيب والشهادة، وائتلفت فيها وتوازنت علاقات الفرد بالمجموع، والخاص بالعام؛ فتدينت الدنيا، مع بقائها دنيا، عندما صاغ الإسلام نفس الإنسان المسلم ووجدانه وعقله تلك الصياغة التي ائتلفت فيها وتوازنت آيات الله في الوحي السماوي بآياته في الأنفس والآفاق.

إن دين الإسلام لا يقوم ولا يقام بالتبتل الفردي والخلاص الذاتي، وإنما لا بد لإقامته وتحقيق كامل فرائضه من أمة ووطن واجتماع ومجتمع، وفروض اجتماعية، يتوجه الخطاب فيها والتكليف بها للأمة. وهذه الفروض الاجتماعية أهم وآكد من الفروض الفردية، بدليل أن إثم التخلف عن الفريضة الفردية يقع على الفرد وحده، بينما إثم التخلف عن الفريضة الاجتماعية يقع على الأمة جمعاء.

وفي دين الإسلام، اقترنت الهجرة في سبيل الله بتأسيس الدولة، وإقامة المجتمع، وتطبيق القانون، وإقامة نسيج اجتماعي بين الرعية يحقق المؤاخاة، لا في الحقوق الدينية المجردة فقط، وإنما في أمور المعاش الدنيوية أيضًا؛ بل لقد امتد هذا النسيج بمعايير المواطنة، وحق الاختلاف حتى في الدين، إلى حيث ضم هذا النسيج غير المسلمين مع المسلمين.

فالهجرة إلى الله ليست رهبانية، تخلص فيها وبها الذات، بمعزل عن الحياة والناس.. بل إن رهبانية الأمة الإسلامية هي الجهاد، الذي هو

فريضة اجتماعية تستلزم وجود الأمة والوطن والاجتماع.

لقد أحدثت الدعوة الدينية الإسلامية أثرًا تكوينيًا تربويًّا في شخصية الفرد المسلم، أصبح عاملاً نفسانيًّا، حقق ائتلاف العناصر الفردية في المجتمع الإسلامي، الطبيعي منها والشرعي، المدني منها والديني، العقلي منها والنقلي، المادي منها والمجرد.. فكان ذلك الائتلاف حضارة إسلامية، أبدعها الإنسان الذي صاغته الدعوة الإسلامية. وتلك خصيصة من خصائص الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية؛ فالرسالات الدينية التي سبقت رسالة الإسلام الخاتمة، إما أنها تزامنت مع حضارات غير متدينة، فتعايشت معها، دون أن تغيرها وتصبغها بصبغتها؛ بسبب وقوف تلك الرسالات عند حدود خالص الدين، وإما أن تلك الحضارات السابقة على الحضارة الإسلامية قد عاشت في أزمنة الفترة التي خلت من رسالات الدين.

بينما تميز الإسلام بكونه دينًا فجّر حضارة، وصاغ مدنية، وأثمر اجتماعًا إنسانيًّا، وألّف في نفس الإنسان -بالمنهاج التربوي الشامل- ذلك الائتلاف المتوازن، الذي جعل هذا الإنسان يبدع الحضارة المصطبغة بصبغة الدين. لقد حقق الدين الإسلامي الائتلاف والتوازن والأمن في نفس الإنسان المسلم، فجاء الإبداع المدني لهذا الإنسان -أي الحضارة الإسلامية- ثمرة مجسدة لهذا الذي أحدثه الدين في نفس هذا الإنسان.. فلما حدث وبعدت هذه الحضارة وثقافتها عن هذه الصبغة كان هذا الخلل الذي نشكو منه، والذي حدث منذ قرون، والذي تطبّ لدائه كل دعوات وحركات الإصلاح في أمة الإسلام.

وإذا كان الإسلام هو سبب تقدم المسلمين، ونهوضهم الحضاري،

وازدهارهم الثقافي.. فما سبب التخلف الذي أصاب المسلمين، مع بقاء الإسلام كما هو، على حاله الذي كان عليه عندما فجر ينابيع التقدم في الحياة الإسلامية؟!

إن السبب هو غيبة "الروح" (روح الدين الإسلامي) عن الحضارة (الحضارة الإسلامية)، هو انقطاع الاتصال بين الإسلام وحضارة المسلمين.. هذه الروح التي جعلت الحضارة إسلامية، بل والتي فجرتها وصبغتها بصبغة الإسلام.

لقد جلس الحسن البصري إلى واعظ من الوعاظ، فلم يتأثر قلبه بموعظته، فسأل الحسنُ الواعظ: "يا أخي، أبقلبك مرض أم بقلبي؟". إن انقطاع الاتصال، لغيبة الروح، هو سبب المرض والمأزق الحضاري، الذي تطب له وتبحث عن علاجه مختلف مدارس الإصلاح.

فما هذه الروح التي جعلت الإسلام -دون الديانات الأخرى- يصنع حضارة وثقافة، ولايقف عند مجرد الدين؟! وأين موطن الخلل الذي عطل الفعل الإسلامي في الحضارة والثقافة؛ فتراجعت الحضارة الإسلامية، وضمرت الثقافة الإسلامية، مع بقاء الإسلام "الدين" كما هو، وبقاء الإيمان به والاستمساك بعراه؟!

لقد عرض الشيخ محمد الفاضل بن عاشور لهذه القضية المحورية عندما تحدث عن الأمور التالية:

بناء الحضارة والثقافة

تميز الإسلام (الدين) بإفراز الحضارة، وبناء الثقافة: "فإذا كان الإسلام، باعتباره دينًا، يشترك مع غيره من الأديان في القضايا التي هي موضوع

الديانات عامة، فإن للإسلام نواحي ينفرد بها عن تلك الديانات، التي اشترك معها في القضايا الدينية بصفة عامة، إذ تكون له جهات اتصال بالثقافات والحضارات ليست لغيره من الأديان الأخرى.. فهذه التي نسميها الحضارة الإسلامية، أو تلك التي نسميها الثقافة الإسلامية، إنما هي سلاسل من الأحداث والأوضاع والكيفيات الاجتماعية والذهنية، كان الإسلام مبدأ نشأتها وسبب تكوينها. فلم يقف الإسلام عند التعايش مع العلم، وإنما أصبح كل موضوع علمي ذا صلة بالعقيدة الدينية، وصار الارتباط بين الدين والمعرفة العقلية، أو بين علم الطبيعة وعلم ما وراءها ارتباط التفاعل والتمازج. ونشأ من ذلك اتجاه نحو الحياة والسلوك فيها، يدفع به العامل الديني الاعتقادي في كل وجه من وجوهه، وسبيل من سبله؛ فصار الداعي الديني يتجلى فيما يصنع العالم، وما ينتج الأديب، وما يصوغ صاحب الفن. وصارت المعرفة العلمية سندًا لكلام المتكلم، وفقه الفقيه، وتصوف الصوفي، على الصورة التي ربطت عناصر المعرفة، وأخرجت كتب العقيدة الإسلامية جامعة للمعارف الطبيعية والرياضية والإنسانية، مع الحقائق الاعتقادية؛ يتجانس فيها العلم مع الدين، ويتساند العقلي والنقلي. لقد تكوّن المجتمع الإسلامي بإثر دعوة دينية، إنه مجتمع ديني بالمعنى الأخص، كان الدين فيه العامل الأول المباشر. ومن دعوة الدين، والإيمان بها، اكتسب الشعب الذي استجاب لتلك الدعوة وامتاز بذلك الإيمان خلالاً نفسية جديدة. لم يستفد علمًا ولا صناعة ولا قوة مادية، ولكن الذين اكتسبه من الخلال طوّع العلم والصناعة والقوة المادية؛ فكانت المدارك الدينية وحدها هي التي فتحت أمام نظر المسلم آفاق الكون للتأمل والاعتبار، والمعرفة والإيمان. فالحقيقة الاعتقادية

الإلهية، هي الأساس لكل ما بنت الحضارة الإسلامية من هياكل حسية ومعنوية. وإنسان هذه الحضارة، بالدين فكّر، وبالدين تحضّر، وبالدين أنتج آثار حضارته، وبالدين أقام الدولة الصائنة للمجتمع وحضارته. وكذلك استمرت مظاهر الحضارة متصلة في نفسه بالدين، وعوامل الدين فعالة في مظاهر الحضارة".

التوازن والانسجام

كذلك امتازت هذه الحضارة الإسلامية وثقافتها بالتوازن والانسجام؛ لأنها ثمرة لامتياز الإسلام بتحقيق التكامل والتوازن والانسجام في مصادر المعرفة الإنسانية: "فكل الحقائق، المتصلة بالمادة والمتصلة بما وراءها، هي في متناول الإنسان، يستطيع أن يتوصل إليها بمداركه العديدة المدرّجة، المستند بعضها إلى بعض، في غير تنافر ولا تدابر ولا تناشز. فالمدركات الغريزية، وراءها المدركات الحسية. ثم المدركات الحسية، وراءها المدركات العقلية. ثم المدركات العقلية، تؤدي إلى المقدمات المفضية إلى تلقي المدركات الغيبية، الآتية من طريق الوحي، وإلى التسليم بها، والإذعان لها. وتبقى هذه المدركات كذلك متعاونة متساندة، لا يمكن أن يحصل بطريق واحد منها ما يتناقض مع الحاصل من طريق مدرك آخر، إلا أن بعض ما يقصر عن الإحاطة به أحد هاتيك الطريق، يمكن أن يتصل به طريق آخر منها، حتى تنتهي إلى الإذعان للمدركات الحاصلة بالطريق الخارق للعادة، وهو طريق الوحي. فعقل الإنسان وعقيدته، وحسه المادي، وعواطفه الغريزية، كلها متجانسة متعاونة، لا يخشى بعضها بعضا، ولا يقطع أحد سبيل الآخر. لقد كانت الحضارة

الإسلامية من أثر إنسان اكتسب وضعًا منسجمًا في ذاته، آمنا إلى نفسه، فصنع على مثال نفسه حضارة أكسبها مما اكتسب، وأفاء عليها مما أفاء الله عليه، حتى فاقت بما فيها من انسجام غيرها من الحضارات".

ما أسباب التخلف؟

لكن ما الذي حدث حتى تخلفت الحضارة الإسلامية وتهلهلت ثقافتها، مع بقاء الإسلام -الذي صنعهما وحقق لهما الازدهار الذي دام لعدة قرون، كانا فيه منارة للعالمين- على ما هو عليه؟! "لم يكن المصاب العزيز هو الإسلام، وإنما كان الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية. وكانتا تتطلعان إلى الإسلام بذاته، تحنان إليه، وترجوان شفاءهما عنده. وكان القريب والبعيد يدركون أن ما نزل بالمجتمع الإسلامي، في حضارته وثقافته، ليس إلا أمرًا آتيًا من انحراف عن الأصل، وانقلاب في الوضع، وانفلات عن العامل التربوي الأصلي الذي لزم الأصول، وأحكم الأوضاع؛ فلقد أصاب الحضارة والثقافة ما عزلها عن صدق الاستمداد من الإسلام، ومتين الاعتماد عليه، حتى مال عمادها، واضطربت أوتادها..".

فالخلل لم يحدث في ذات الإسلام؛ وإنما في توقف عقيدة الإسلام عن أن تكون روح الحضارة، وانكماش الإرادة الاعتقادية البناءة للحضارة، وغربة الحضاري عن الديني، وتفكيك الدين عن الدنيا: "وإن تبيّن الناحية التي أصابتها العلة من العقيدة، هو الذي يكشف عن الأسباب التي قضت بضعف الحضارة وتهلهلها. إن الذي حدث في العقيدة الدينية، وقضى بتضعضع الحضارة، إنما هو انكماش صدّها عن أن تخلع من روحها على الحضارة، فأصبحت الحضارة خائرة جامدة، لا تتقدم. وما كان ذلك

الانكماش إلا أثرًا من آثار الضعف، الذي أصاب العقيدة في جوهرها. إن الإرادة الاعتقادية البناءة هي التي خارت وضعفت؛ فأصبحت الأوضاع الاجتماعية، والآثار المدنية تصدر عن غير ما كانت تصدر عنه، فصارت هي في واد والعقيدة الدينية في واد. وبقي المسلم وفيًّا لعقيدته الدينية، غيورًا عليها، من جهة، متقبلاً لحياته العملية، مطمئنًّا إلى واقعها من جهة أخرى. حتى أصبح المبدأ النظري والواقع العملي عنده متباينين، وتولدت من ذلك نظرية تفكيك الدين عن الدنيا، باعتبار أن الدين خيرٌ غير واقع، والدنيا شر واقع، وأن العبد المسلم يحمل بين جنبيه دِينًا لا يؤثر فيه إلا لمامًا، ويعيش في دنيا لا يعرف فيها إلا كل ما يبعد به عن الدين. ثم هجمت عليه في حياته العملية مدنيات أجنبية عنه، فيها العلم، وفيها الصناعة، وفيها القوة، وفيها الحكمة؛ فلم يجد من إرادته الدينية ما يتناول به هذه المدنية، كما تناول المدنيات التي احتك بها من قبل، يوم كانت إرادته الدينية قوية سليمة، فوقف أمامها جامدًا، واعتبرها من جملة صور الحياة التي كان من قبل آمن بانفكاكها عن الدين..".

ذلك هو موطن الخلل الذي كان ابن خلدون من أفضل من أدركه، وحلله.. "لقد حلل ابن خلدون المشكلة تحليلاً دقيقًا، عندما جعل شؤون السياسة والعمران والصناعة والعلم في الدولة الإسلامية، تبعًا لشأن الدين. وجعل الحقيقة الأولى للدين، التي هي العقيدة الفردية أصلاً وأساسًا لذلك كله، فأخذ يدرس مشكلة فساد الدولة، وركود العمران -في عصور الإسلام اللاحقة عن عصوره السابقة- وانتقاص الصنائع، وتلاشى ملكات العلوم، واختلال طرائق التعليم في الأمصار الإسلامية لعهده، جاعلاً ذلك كله راجعًا إلى اختلال الحقيقة الأولى للدين، التي هي أساس العمران

الناشئ به، والدولة القائمة عليه، أعني العقيدة الدينية، فردّ ذلك كله إلى صورة تكوّن الفرد تكوّنًا إيمانيًا، يرتبط من جهة بالدين الإسلامي في عقيدته، ويسري منه إلى كل ما انبثق عن تلك العقيدة من مظاهر عمرانية وصناعية وفكرية. وإذا كان الناس يكتفون بأن يمثلوا ما بدا في حياة المجتمع الإسلامي وحضارته من إخلال، بما يرجع إلى نظم الحكم، وصور الدول، وما شاع من فساد الخلق، وتفكك الروابط الاجتماعية، فإن ابن خلدون يطلب لهذه العلل عللاً، ويرد هذه الأسباب إلى أسباب وراءها. فانقلاب الخلافة إلى ملك ليس العلة، وإنما هو عَرض لعلة تغيّر الوازع الديني إلى مقاصد التغلّب والقهر، والتقلّب في الشهوات والملاذ، وحلول عصبية الدولة محل عصبية الدين. لقد أرجع ابن خلدون الحضارة الإسلامية إلى أصلها وأساسها، أو بالأوضح روحها، وهو العقيدة الدينية".

حجم المشكلة

وإذا كانت هذه هي المشكلة، فما هو حجمها؟ وما هو عمرها؟ إن حجم هذه المشكلة ليس بالهين، وعمرها ليس بالقصير. "وإذا كنا لا ننكر أن الحضارة الإسلامية قد تقاصرت وتراجعت وتخلخلت، وأن الثقافة قد ذوتْ وانكمشت واصفرت، وأوشكت أن تصير حطامًا، فإن ذلك ليس وليد الأمس، ولا أمسه. ولكنه الأدواء التي استفحلت في القرون الأخيرة، حتى أعضلت، وعز دواؤها، ثم لم تزل تنمو وتشتد وتتفاقم آلامها وأخطارها حتى انتهت إلى الوضع المفزع، الذي ضج قرننا الحاضر منه بالشكوى..".

ما هو الحل؟

وأخيرًا وبعد تحديد روح الحضارة الإسلامية، وتشخيص موطن الخلل

الذي أصاب حضارتنا وثقافتنا؛ فما هو الحل الحقيقي لهذه المشكلة؟ والمخرج من هذا المأزق الذي يأخذ بخناق الأمة؟

إن الحل هو في العودة إلى الروح التي صنعت الحضارة المزدهرة والثقافة المتألقة. إنه عودة الروح الدينية لتصوغ النهضة الحضارية المتميزة والمستقلة. وهذا هو المعنى الحقيقي لمقولة: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. "فلولا التكوّن الفردي المكّي، والتكوّن الاجتماعي المدني، لما كانت آثار الحضارة التي تبدت في عواصم الإسلام. فإذا كان الناس اليوم يحنّون إلى عهود ذهبية، ازدهرت بها تلك العواصم، ويتحرقون إلى إحيائها وتجديدها، فأجدر بهم أن يعودوا إلى العامل الأصلي الذي ولّد تلك العصور الذهبية، والذي بدونه لن تعود زهرة تلك العصور وينعتها، ألا وهو العامل التربوي الإسلامي، الذي كوّن الفرد قبل أن يكوّن المجتمع، ومهد للثقافة طريقها قبل أن يتناول عناصر المعرفة التي ألّفت كيانها".

أما إذا وقفنا عند "استقلال العَلَم والنشيد"، دون حقيقة "الاستقلال الحضاري"، الذي هو ثمرة للصبغة الإسلامية المتميزة، فلن نخرج من هذا المأزق الذي نعيش فيه. "لقد خرج العالم الإسلامي من تحت حكم الغير، واسترجع سيادته الذاتية، لكن هل هو مستطيع أن يعاود حضارته، ليضطلع بأعبائها من جديد، وليمثل للناس صورة جديدة من الثقافة والحضارة، منطبعة بطابع شخصيته الإسلامية، ومنبثقة عن المبادئ الاعتقادية الإسلامية، التي انبثقت عنها الصورة الماضية التي عرفها التاريخ من ثقافة الإسلام وحضارته؟ إن نهضة اليابان ليست بوذية، ولا نهضة الصين نهضة كونفوشية، ولا نهضة اليونان نهضة بيزنطية، ولا

أفلاطونية، ولا أرسطوطاليسية، بل ولا هي يونانية على الحقيقة بأي حال من الأحوال. فهل سيكون شأن الإسلام مقصورًا على هذا الوضع؟ أو أن حضارة إسلامية الروح، وثقافة إسلامية الطابع، ستبدوان من بين ذلك القدر المشترك المؤلف بين شعوب الأمة الإسلامية، الناهضة المستقلة؟ إن روح تلك الحضارة هي الموقع الرئيسي للمشكلة".

تلك بعض من قضايا وأفكار ومحاور المعضلة التي حار ويحار فيها المصلحون، روح الحضارة الإسلامية، التي صنعت وميزت الحضارة والثقافة في عصور النشأة والازدهار، وموطن الخلل الذي جعل الحضارة تتراجع، والثقافة تتهلهل. والحل والمخرج من هذا المأزق الحضاري الذي تعيشه أمة الإسلام.

طاقة الإسلام الاحتوائية للآخر

- التطبيق النبوي للسماحة الإسلامية
- في الخلافة الراشدة
- في التاريخ الإسلامي
- وشهد شاهد من أهلها

الإسلام هو الجامع والوارث لكل مواريث النبوات، فلقد تفرد بالسماحة التي جعلته وحده المؤمن بكل الرسل والأنبياء، وبجميع الكتب والصحف والألواح، دون تفريق بين أحد من رسل الله عليهم الصلاة والسلام.

طاقة الإسلام الاحتوائية للآخر

إن السماحة التي تعني المساهلة واللين في المعاملات، والعطاء بلا حدود، ودونما انتظار مقابل، أو حاجة إلى جزاء.. إن هذه السماحة في النسق الإسلامي ليست مجرد كلمة تقال، ولا شعار يرفع، ولا حتى صياغةَ نظرية تأملية ومجردة؛ كما أنها ليست مجرد فضيلة إنسانية يمنحها حاكم ويمنعها آخر. وإنما هي دين مقدَّس، ووحي إلهي، وبيان نبوي لهذا الوحي الإلهي، وتجسيد وتطبيق لهذا الدين في دولة النبوة وفي دولة الخلافة الراشدة، وفي التاريخ الحضاريّ للشرق الإسلامي منذ ما قبل أربعة عشر قرنًا، وحتى هذه اللحظات، بل لأن هذه السماحة هي ثمرة للدين الخالد والشريعة الخاتمة، فإنها ستظل منهاجًا للإسلام والمسلمين إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها.

التأسيس القرآني للسماحة الإسلامية

لقد بدأ القرآن الكريم فأسس السماحة الإسلامية على قاعدة الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود. ففي هذا الوجود هناك "حقّ" هو الله ﷻ، و"خلْق" يشمل جميع عوالم المخلوقات. هناك واجب الوجود، وهناك الوجود المخلوق لواجب الوجود. وفي هذا التصور الفلسفي الإسلامي

تكون "الواحدية والأحدية" فقط للحق، لله ﷻ واجب الوجود؛ بينما تقوم كل عوالم الخلق المادية والنباتية والحيوانية والإنسانية والفكرية، (أي كل ما عدا الذات الإلهية) على التعدد، والتنوع والتمايز والاختلاف باعتبار هذا التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف قانونًا إلهيًا تكوينيًا، وسنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل. الأمر الذي يستلزم -لبقاء هذه السنة الكونية قائمة ومطردة- تعايشَ كل الفرقاء المختلفين، وتعارف جميع عوالم الخلق، أي سيادة خُلق السماحة في العلاقات بين الأمم والشعوب والثقافات والحضارات والمذاهب والفلسفات والشرائع والملل والديانات والأجناس والألوان واللغات والقوميات. فبدون السماحة يحل "الصراع" الذي ينهي ويلغي ويفني التعددية محلَّ التعايش والتعارف، الأمرُ الذي يصادم سنة الله ﷻ في الاختلاف والتنوع بكل عوالم المخلوقات.

على هذه الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود أقام الإسلام مذهبه في السماحة، باعتبارها فريضة دينية، وضرورة حياتية، لتكون جميع عوالم الخلق على هذا النحو الذي أراده الله.

وفي التأسيس القرآني لهذه الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود نقرأ في آيات الذكر الحكيم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣). فالإنسانية تتنوع إلى شعوب وقبائل، والسماحة هي السبيل إلى تعايشها وتعارفها في الإطار الإنساني العام.

وهذه الأمم والشعوب والقبائل تتنوع أجناسها وألوانها وألسنتها ولغاتها ومن ثم قومياتها كآية من آيات الله. والسماحة هي السبيل لتعايش

الأجناس والقوميات في إطار الحضارات الجامعة لشعوب هذه القوميات.

وهذه الأمم والشعوب تتنوع دياناتها وتختلف مللها وشرائعها، وتتعدد مناهجها وثقافاتها وحضاراتها، باعتبار ذلك سنةً من سنن الابتلاء والاختبار الإلهي لهذه الأمم والشعوب، وحتى يكون هناك تدافع وتسابق بينها جميعًا على طريق الحق وفي ميادين الخيرات ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(المائدة:٤٨). وبدون السماحة يستحيل تعايش هذه التعددية، التي هي علة الوجود، وسر التسابق في عمران هذا الوجود.

وانطلاقًا من هذا الموقف القرآني الذي جعل هذا التنوع سنة إلهية وقانونًا كونيًّا، كان "العدل" الذي هو معيارُ النظرة القرآنية وروح الحضارة الإسلامية هو أساس السماحة الإسلامية في التعامل مع كل الفرقاء المختلفين. ففي التأسيس لهذه السماحة العادلة يطلب القرآن الكريم منا العدل مع النفس والذات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ﴾(النساء:١٣٥)، بل ويوجب الله ﷻ علينا العدل حتى مع مَن نكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(المائدة:٨).

كذلك يوجب الإسلام علينا العدل في النظر إلى المخالفين لنا في الاعتقاد الذي هو سنة إلهية، ونحن مدعوون وفق منهاج القرآن ألا نضع كل المخالفين لنا في سلّة واحدة، وألا نسلك طريق التعميم الذي يظلم عندما يغفل الفروق بين مذاهب هؤلاء المخالفين ومراقفهم. وإقامةً لهذا

المنهاج رأينا القرآن الكريم لا يعمم أبدًا في حديثه عن أهل الكتاب وأصحاب العقائد والديانات، وإنما يميّز بين مذاهبهم وطوائفهم، فيقول: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾(آل عمران:١١٣).

فالقاعدة القرآنية الحاكمة في التمييز العادل بين الفرقاء المخالفين لنا هي أنهم ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾. صنع القرآن ذلك عندما ميز فرقاء اليهود فلَم يعمم في الحكم على مجموعهم، وصنع ذلك أيضًا في الحديث عن النصارى عندما ميّز بين مَن هم أقرب مودة للمسلمين: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(المائدة:٨٢-٨٣).

والمنطلق الإسلامي لهذا التمييز المؤسس للعدل والسماحة هو العدل الإلهي الذي هو فريضة إسلامية جامعة. فالله ﷻ رب العالمين جميعًا ﴿الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الفاتحة:١) وليس رب شعب بعينه دون سائر الشعوب. والتكريم الإلهي شامل لكل بني آدم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠). ومعيار التفاضل بين البشر المكرمين هو التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات:١٣)، وليس معيار التفاضل لونًا أو جنسًا أو سلالة أو أية صفة من الصفات اللصيقة التي تستعصي على الاختيار والكسب والتغيير. ولذلك قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾(الكهف:٣٠).

وتأسيسًا على هذا العدل الإلهي، أسس القرآن الكريم سماحة الإسلام في النظر إلى مواريث النبوات والرسالات التي سبقت رسالة محمد بن عبد الله ﷺ؛ فالقرآن الكريم لم يأت نافيًا لما سبقه من كتب، وإنما جاء

مصدِّقًا لها، ومهَيمنًا عليها، أي مشتملاً على ثوابتها ومستوعبًا لأركان العقائد فيها، ومضيفًا إليها، ومصححًا لما طرأ عليها. فعلى حين كانت اليهودية تنكر النصرانية وكانت النصرانية تنكر اليهودية جاء القرآن الكريم مصدقًا لما بين يديه من الكتب السماوية السابقة ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾(البقرة:٩١)، ومؤكِّدًا على أن ما أصاب بعض مواضع هذه الكتب لم يمح ما أودعه الله فيها من هُدى ونور ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۞ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ۞ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾(آل عمران:٢-٤)، فالتوراة ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾(المائدة:٤٤)، وكذلك الإنجيل ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾(المائدة:٤٦).

ذلك هو التأسيس القرآني للسماحة الإسلامية على الرؤية الفلسفية للكون والوجود، المحكومة بسنة التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف كقانون تكويني (أزلي أبدي)؛ الأمر الذي يجعل السماحة ضرورة لازمة وفريضة واجبة لبقاء قانون التنوع والاختلاف عاملاً ومرعيًا في عوالم المخلوقات والفلسفات والشرائع والديانات والثقافات والقوميات والحضارات.

التطبيق النبوي للسماحة الإسلامية

ولأن الإسلام هو الجامع والوارث لكل مواريث النبوات، فلقد تفرد بالسماحة التي جعلته وحده المؤمن بكل الرسل والأنبياء، وبجميع الكتب والصحف والألواح، دون تفريق بين أحد من رسل الله عليهم الصلاة والسلام ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾(البقرة:٢٨٥).

ولأن السنة النبوية هي التطبيق النبوي للبلاغ القرآني، رأينا احتفاء رسول الله ﷺ بكل الرسل والأنبياء. فالوحي الذي جاء به في عقائد دين الله الواحد هو ذاته الوحي الذي أوحاه الله إلى الخالين من أصحاب الرسالات.

وانطلاقًا من هذا البلاغ القرآني جاء التطبيق النبوي الذي يحتضن بالإيمان كل الرسل والأنبياء، فهم جميعًا أبناء دين واحد، وشرائعهم (أمهاتهم) شتى: "الأنبياء إخوة من علاّت، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد" (متفق عليه). ولذلك خاطب الرسول ﷺ اليهود فقال: "نحن أحقّ وأولى بموسى منكم"(متفق عليه). وقال عن عيسى عليه السلام: "أنا أولى بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة" (متفق عليه).

ولم يقف هذا التطبيق النبوي للسماحة القرآنية عند حدود السنة القولية، بل تحولت هذه السماحة في التطبيق النبوي إلى واقع معيش، وأخلاق وسجايا، قنّنها وقعدها دستور دولة النبوة في المدينة المنورة وفي العهود والمواثيق التي قطعها وكتبها رسول الله ﷺ لغير المسلمين.

ففي دستور دولة المدينة (الصحيفة، الكتاب) أصبح الآخَر الديني (اليهود) جزءً من الذات (ذات الرعية الواحدة والأمة الواحدة) مع حرية الاعتقاد بالعقيدة الجاحدة لشريعة الإسلام. ونص هذا الدستور على أن "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا مُتناصر عليهم".[1]

وعندما جاء وفد نصارى "نجران" سنة ١٠هـ/٦٣١م إلى مدينة رسول الله ﷺ فتح لهم أبواب مسجد النبوة، فصلّوا فيه صلاة عيد الفصح، مولّين

---

[1] مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمع وتحقيق: د. محمد حميد الله الحيدرآبادي، القاهرة، ١٩٥٦م، ص:١٧-٢١.

وجوههم إلى المشرق، ثم تركهم وما يدينون.[1] وعقد لهم عهدًا عامًّا دائمًا لهم ولسائر من يتدين بالنصرانية عبر الزمان والمكان.

في الخلافة الراشدة

ولقد امتدت هذه السماحة بامتداد الفتوحات الإسلامية التي أقامت "الدولة"، وتركت الناس أحرارًا في "الدين"؛ فرأينا أبا بكر الصديق ﷺ يوصي أمير الجيش الذاهب إلى الشام يزيدَ بن أبي سفيان "إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذَرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له" (رواه الإمام مالك).

ووجدنا الراشد الثاني عمر بن الخطاب ﷺ يكتب عهد الأمان (العهد العمري) لأهل القُدس (إيليا) عند فتحها سنة ١٥هـ/٦٣٥م الذي قرر فيه: "الأمان لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها، وأنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضارّ أحد منهم. ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود (وفق ما طلبوا)، وعلى أهل إيليا أن يُخرجوا منها الروم واللصوص؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن؛ ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلى بيَعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وبيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء،

[1] سبل الهدى والرشاد، لمحمد بن يوسف بن صالح الشامي، ٦/٦٤٢.

وذمة المؤمنين".[١]

بل لقد امتدت هذه السماحة الإسلامية من إطار التعامل مع أهل الديانات السماوية (اليهود والنصارى) إلى أهل كل العقائد والديانات، فشملت المتدينين بالديانات الوضعية من أهل البلاد التي دخلت في الدولة الإسلامية. وعندما فتحت فارس -وأهلها مجوس عبدة للنار- سأل عمر بن الخطاب ﷺ مجلس الشورى (مجلس السبعين) عن الموقف من أهل هذه الديانات غير السماوية: "كيف أصنع بالمجوس؟" فوثب عبد الرحمن بن عوف ﷺ فقال: أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: "سُنّوا بهم سنة أهل الكتاب".[٢]

والإسلام لم يفرض على منكريه وجاحديه والكافرين به عقوبة دنيوية، وإنما أعلن أن حِسابهم على الله يوم الدين. ولذلك قال الإسلام حتى للمشركين الذين أشركوا الأوثان والأصنام مع الله ﷻ: ﴿وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۞ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(الكافرون:٤-٦).

ولم يقم رسول الله ﷺ حدًّا ولا عقوبة دنيوية على الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا، ولا على الذين آمنوا وجه النهار وكفروا آخره. فـ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦)؛ لأن الإكراه يثمر نفاقًا، ولا يثمر إيمانًا، إذ الإيمان تصديق قلبي يبلغ مرتبة اليقين، فاجتماعه مع الإكراه مستحيل.

ولم يُقم رسول الله ﷺ وهو رأس الدولة حدًّا على مرتدّ إلا في الحالة الواحدة التي لم يقف فيها الأمر عند الردة عن الدين، وإنما بلغ الأمر مرتبة الحرابة والخروج المسلح على الأمة والدولة؛ فالنفر الذين اغتصبوا إبِل

---

[١] الوثائق السياسية، د.محمد حميد الله، ص:٣٤٥-٣٤٦.

[٢] الوثائق السياسية، د.محمد حميد الله، ص:٣٤٥-٣٤٦.

الصدقة (مال الدولة) وقتَلوا الغلمان الذين كانوا يرعون هذه الإبل (عمّال الدولة) ومثّلوا بجثثهم، وارتدوا عن الإسلام، قد ارتكبوا جريمة مركبة، صنفها الإسلام تحت حد الحرابة، وليس في باب الردة، وذلك عندما نزل في هؤلاء النفر قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(المائدة:٣٣-٣٤).

ولأن هذا هو موقف السماحة الإسلامية من المخالِفين في الاعتقاد، فلقد جاء حديث القرآن الكريم عند الإذن بالقتال والتحريض عليه دائمًا وأبدًا في سياق الحديث عن صدّ عدوان الذين اعتدوا على المؤمنين ففتنوهم في دينهم، وأخرجوهم من ديارهم، وظاهروا على إخراجهم من أوطانهم، لا لشيء إلا لإيمانهم بالإسلام ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾(الحج:٣٩-٤٠). فحرية الدعوة والضمير، وحرية الوطن الإسلامي هما معيار "الولاء" و"البراء"، و"السلم" و"الحرب" بين المسلمين وغير المسلمين. وفي التقعيد لهذه القاعدة الكلية جاءت آيات القرآن الكريم: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(الممتحنة:٨-٩).

في التاريخ الإسلامي

وإذا كان المسلمون قد فتحوا في ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون، فإن كل معارك الفتوحات الإسلامية قد وقفت عند تحرير الشرق من قهر القوى الاستعمارية وخاصة الروم الذين استعبدوا الشرق وقهروه، ومن قبلهم الإغريق عشرة قرون من الإسكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد وحتى هرقل في القرن السابع بعد الميلاد.

وقفت كل معارك الفتوحات الإسلامية، عند تحرير الشرق من هذا القهر السياسي والديني والثقافي والحضاري، ولم تحدث معركة واحدة بين الجيوش الإسلامية وبين أهل البلاد الشرقية التي شهدت معارك تلك الفتوحات. بل لقد حارب أهل تلك البلاد وساعدوا جيوش الفتوحات الإسلامية ضد الفرس والروم وهم على دياناتهم القديمة. حدث ذلك بمصر والشام والعراق.

وعندما تم تحرير هذه البلاد، تركت الدولة الإسلامية شعوب تلك البلاد وما يَدينون، حتى إن الذين دخلوا في الإسلام من أهل مصر والشام وفارس بعد قرن من الفتح لم يزيدوا على عشرين بالماءة من السكان.[1] فكانت الدولة الإسلامية حارسة للأرض المحرَّرة من الروم المتربصين الذين ظلوا يجيّشون الجيوش لإعادة اختطاف الشرق حتى فتح القسطنطينية، كما ظلت هذه الدولة الإسلامية حارسة لحرّية الضمير والاعتقاد الديني، الذي سبق وقهره الرومان عشرة قرون.

---

[1] المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، فيليب فارج، يوسف كرباج، ترجمة: بشير السباعي، القاهرة، ١٩٩٤م، ص:٢٥.

ولقد شهد بهذه الحقيقة -حقيقةِ سماحة الإسلام مع ديانات شعوب البلاد التي دخلت في دولة الإسلام- التاريخُ والمؤرخون، وغير المسلمين منهم قبل المسلمين.

فهذا الفتح الإسلامي هو الذي أنقذ المسيحية الشرقية من الإبادة والزوال، حتى ليمكن أن نقول -دون مبالغة- إنّ بقاء هذه المسيحية الشرقية حتى الآن إنما هو هبَةُ الإسلام وسماحة الإسلام.

فعمرو بن العاص ﷺ هو الذي أمّن البطرك المصري "بنيامين" على حريته، وأعاده إلى شعبه بعد ثلاثة عشر عامًا من الهرب والاختفاء عن أعين الرومان.. وهو الذي حرر كنائس نصارى مصر وأَدْيرتهم من الاغتصاب الروماني، لا ليجعلها مساجد، وإنما ليردها لأصحابها النصارى يتعبدون فيها بحرية، للمرة الأولى في تاريخ النصرانية المصرية. ومع تحرير الأرض والكنائس والأديرة حرر عمرو بن العاص ﷺ -لأنه مسلم- ضمائر الشعوب التي أدخلتها الفتوحات في دولة الإسلام، لأول مرة في تاريخ نصرانية تلك الشعوب بعد أن كان الرومان يقدمونهم طعامًا للنيران والأسود!..

وشهد شاهد من أهلها

وإذا كانت نجاة النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية هي الشاهد الماديّ الأصدق على حقيقة السماحة الإسلامية، فإن المؤرخين النصارى -من الشرق والغرب، القدماء والمحدثين- قد شهدوا هم أيضا لهذه السماحة الإسلامية.

ففي أقدم كتب التاريخ النصرانية حديث عن سماحة عمرو بن العاص

ﷺ مع نصارى مصر، وكيف أن تحرير الإسلام لهم من قهر الرومان، وهزيمة الاستعمار الروماني بمصر على يد الجيش الإسلامي الفاتح إنما كان انتقامًا إلهيًّا من ظلم الرومان لمصر واضطهادهم لنصارى مصر.. ففي تاريخ "يوحنا النقيوسي" -وهو معاصر للفتح وشاهد عليه-: "إن الله الذي يصون الحق لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرّئهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين (العرب المسلمين) ثم نهض المسلمون وحازوا كل مدينة مصر.. وكان هرقل حزينًا.. وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا في مدينة مصر، وبأمر الله الذي يأخذ أرواح حكّامهم مرض هرقل ومات.. وكان عمرو بن العاص ﷺ يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما، سلبًا أو نهبًا، وحافَظ عليها (الكنائس) طوال الأيام".[1]

إنها شهادة شاهد عيان نصراني على هذه السماحة الإسلامية التي تجسدت على أرض الواقع. ومتى؟ قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان. وهي سماحة نابعة من الدين الإسلامي، وليست كحقوق المواطنة التي لم تعرفها المجتمعات العلمانية إلا على أنقاض الدين.

وبعدما استقبل عمرو بن العاص ﷺ البطرك القبطي "بنيامين"، وأمّنه على نفسه وكنائسه ورعيته وحرية عقيدته بل وطلب منه أن يدعو له، أخذ "بنيامين" في زيارة كنائسه وفي إعادة افتتاحها. وكان الناس يستقبلونه فرحين، مرددين العبارات التي تشهد على أن هذا الفتح الإسلامي إنما هو عقاب إلهي للرومان جزاء الظلم الذي أوقعوه بالنصارى المصريين.

---

[1] تاريخ مصر، ليوحنا النقيوسي، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص:٢٠١-٢٠٢.

ولقد عبّر الأنبا "بنيامين" عن الأمان الذي أحلّته سماحة الإسلام بمصر، على أنقاض القهر والاضطهاد اللذين مارسهما الرومان (النصارى) ضد نصارى مصر. فقال وهو يخطب في دير "مقاريوس": "لقد وجدتُ في الإسكندرية من النجاة والطمأنينة اللتَين كنتُ أنشدهما، بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون".[١]

تلك شهادات شهود العيان ورجال الدين النصارى تقول: إن الفتوحات الإسلامية كانت "الإنقاذ" لشعوب تلك البلاد ودينهم من القهر الروماني، وإن سماحة الإسلام كانت آية من آيات الله، انتقم الله بها من مظالم الرومان. حتى لقد اعتبروا مرض هرقل وموته -وزوال الإمبراطورية الشرقية للرومان- و"سيادة الإسلام" في مصر والشرق آية من آيات الله.

بل لقد زحف رهبان النصرانية المصرية من الأديرة والمغارات التي كانوا هاربين فيها من الاضطهاد الروماني.. زحفوا للقاء عمرو بن العاص ﷺ، حتى "لِيُروى أنه خرج للقائه من أديرة وادي النطرون سبعون ألف راهب، بيد كل واحد عكاز، فسلموا عليه. وأنه كتب لهم كتابًا (بالأمان) هو عندهم".[٢]

وحتى يحافظ الأقباط على نعمة هذا التحرير وهذه السماحة الإسلامية، فلقد هبّوا عندما عاد الرومان إلى احتلال الإسكندرية سنة ٢٥هـ/٦٤٦م، في عهد الراشد الثالث عثمان بن عفان ﷺ، هبّوا إلى القتال مع الجيش المسلم ضد الرومان النصارى، وطلبوا من الخليفة إعادة عمرو بن العاص لقيادة المعركة. فعاد إلى مصر، واستخلص الإسكندرية ثانية من أيدي الرومان.

---

[١] تاريخ مصر، ليوحنا النقيوسي، ص:٢٢٠.

[٢] تاريخ مصر في العهد البيزنطي، ص:١٩٤.

تلك هي السماحة الإسلامية.. كما تجلّت في القرآن الكريم.. وفي البيان النبوي للبلاغ القرآني.. وكما تجسدت في المواثيق الدستورية.. وفي الحياة العملية والواقع المعيش للدولة الإسلامية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، وعبر تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية.. وكما شهدت بها المصادر التي كتبها المؤرخون الثقات من النصارى الشرقيين والغربيين.. القدماء منهم والمحدثين والمعاصرين، والذين تعمدنا الاعتماد على شهاداتهم هم وحدهم، دون شهادة المؤرخين المسلمين. وذلك عملاً بمنهاج ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾(يوسف:٢٦) على هذه السماحة الإسلامية، التي تفرّد بها الإسلام، والتي لا نظير لها خارج إطار الإسلام.